الباب الرابع

الجار في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ

الفصل الأول : النجاشي خيرُ جار

الفصل الثاني : النبيُّ ﷺ جارُ أبي أيوب الأنصاري

الفصل الأول

النجاشي خيرُ جار

قصصُ الجوارِ الرَّائعةِ تملأُ أسماعَ التاريخ في عَصْر النُّبـوة ، وكُلُّهـا ينضـحُ بـأريـجِ فضـائـلِ المكـارمِ ومكـارمِ الفضائل ، وفي هذا الفصلِ المبارك ، سنعيشُ أجواءَ قصةٍ ميمونةٍ عبقتْ بها أسماعُ الدُّنيا ، وملأت وجدانَ الصَّحابة المهاجرين إلىٰ الحبشة بمعانيَ عِظام ، يتوّجها حسنُ جوارِ النجاشي ملكِ الحبشةِ لهم .

ـ ولعلَّ القارىءَ الكريمَ يعرفُ قصة هجرة المسلمين إلىٰ الحبشة ، إلا أنّني هنا أرسمُ مشاعري علىٰ هذه الصّفحات ، كيما يدرك القراء جميعاً ماهيّة الجوار عند الذين عرفوا أنوارَ الحقّ ، فاتبعوا الحقّ ، وآمنوا به ، وهاجروا من أجله ، فكان

جزاء هجرتهم أن أحسن النجاشي مثواهم ، ونعموا بحسنِ جواره ، وحمدوه ، وسيظلُّ أريجُ حُسْنِ جواره تتحلىٰ به الأفواهُ والأسماعُ إلىٰ أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها .

ـ ولنبدأ قصةَ الهجرة كما جاءت في المصادر الوثيقة مع التصرف بها قليلاً والاختصار المفيد .

ـ كان السَّابقون الأوّلون إلىٰ دوحةِ الإسلامِ في مكة المكرمةِ منْ عليةِ قريش ، ومن زينة شباب بيوتاتها ، لهم مكانتهم في قريش وفي عشائرهم[1] ، ولذلك طارتْ أدمغةُ قريشٍ شعاعاً في رؤوسهم ، وغاظهم بل آلمهم إسلامُ هذه

---

(١) منَ الأخطاءِ الشائعةِ في ديوانِ السيرةِ النبوية ما شاع بين الناس من أنَّ المستضعفين منَ الناسِ والعبيد ، هم أوّل الناس إسلاماً ؛ ولكنَّ حقائقَ السيرةِ النبوية تخالفُ تلكم الشائعة ؛ فأبو بكر الصِّديق ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعثمان بن عفان ، وخديجة أم المؤمنين ، وأسماء بنت أبي بكر الصديق ، وأم الفضل زوج العباس وأمثالهم ، كانوا من السابقين ومن علية القوم . وهذا لا يمنع أن يكون بلال وغيره من السابقين .

الصفوةِ المباركةِ منْ شبابها وشاباتها ، وعلية بيوتاتهم ، لذلك بدأتْ فدائحُ البلاء والمحنْ تتوالىٰ علىٰ أولئك الصّفوة ، وطارتْ وتبخرت رحمة الأبوة ، وشفقة البُنوّة ، ومحبّة الأخوة من أكباد أجلاف قريش ، طلباً لمرضاة آلهتهم المزعومة ، لعلها ترضى - بزعمهم - عنهم إذا ما أذاقوا أقرباءهم وجيرانهم المؤمنين ألوان العذاب ، وألوان الجفاء ، وسوء الجوار .

- وغضَّ المؤمنون طرفهم عن سفاهةِ السُّفهاء ، وأغمضوا أعينُهم عن قذىٰ قسوةِ الأمهاتِ والآباءِ ، وصبروا علىٰ ألوان الضَّيم ، وسوء الاعتداء ، حتىٰ يقضي اللهُ أمراً كان مفعولاً ، ويأتي بالفرج من عنده .

- ولمعتْ بارقةُ الفرجِ منْ أفقِ الغيب ، فإذا بالحبيب المصطفىٰ ﷺ يشيرُ علىٰ أصحابهِ بالهجرةِ إلىٰ أرضِ الحبشةِ ، حيثُ فيها مَلِكٌ لا يُظلمُ عنده أحد ، وخرج المسلمون إلىٰ الحبشة ، وهناك أقاموا بخير دار عند خير جار ، وهم آمنون من أذىٰ قريش .

ـ ولكن قريشاً ساءها حسنُ جوار النجاشي لأبنائها ، فطاشتْ أحلامها ، فبعثتْ وفداً منْ عندها برئاسة عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص كي يردّا المهاجرين إلىٰ بلادهم .

ـ ولما مَثُلَ هذان الرّجُلان أمام النجاشي ، وكلّماه في أمرِ المهاجرين ، وأنَّهم شقُّوا عصا الطاعة ، وخرجوا عن الجماعة ، وفارقوا دِيْن قومهم وعابوا آلهتهم ، ـ وكانا قد قدّما هدايا إلىٰ بطارقة النجاشي ـ فقال البطارقة : صدقا أيها الملك ، فإنَّ قومَهم أعلمُ بما فعلوا فأسْلِمهم إليهما .

ـ وهنا انتفض النجاشي ، كما ينتفضُ العصفورُ بلَّلهُ القَطْرُ ، وغضبَ غضباً شديداً ، لأنَّهم يأمرونه بالإساءةِ إلىٰ الذين اختاروا جواره وقال : لاها الله ، لا أسلمهم إليهما ، ولا يُكادُ قومٌ جاوروني ، ونزلوا بلادي ، واختاروني علىٰ مَنْ سواي. ، حتىٰ أدعوهم فأسألهم عمّا يقول هذان في أمرهم ، فإنْ كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلىٰ قومهم ، وإنْ كانوا علىٰ غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنتُ جوارهم ما جاوروني .

ـ وأحضر النجاشيُّ المسلمين وسألهم ، وكلمه جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ كلاماً من وحي التنزيل ، فتنزّلَتْ قطراتُ الرحمةِ علىٰ قلب النجاشي ، وسُرَّ عندما أخبره جعفر أنَّهم رغبوا بجواره فقال : لما قهرنا قومنا وظلمونا ، وضيّقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلىٰ بلادك واخترناك علىٰ مَنْ سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نُظْلَم عندك أيُّها الملك .

ـ ثُمَّ قرأَ عليه صَدْرَ سورة مريم ، وهناك قال النجاشي ؛ وأنسام الإيمان تنبعثُ من كلماتهِ ؛ وكانتْ عيناه وأعينُ مَنْ معه منَ الرّهبان تفيضُ بدمع اليقين[1] بأنَّ ما سمعوه منْ فصيح ومليح ومُتكلِّم المهاجرين جعفراً إنما يخرجُ من مشكاةِ النبوة ومن مشكاة عيسى عليه السلام :

---

(١) لقد استجابَ النجاشي وأحباره ورهبانه لكلمة الحق ، وفاضتْ أعينهم بالدّمع ممّا سمعوا من الحقّ ، وأنزل الله فيهم قرآناً يتلىٰ : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ [المائدة : ٨٢] .

إنَّ هذا والذي جاء به عيسىٰ ليخرج من مشكاةٍ واحدة .

ـ ثُمَّ قال لمبعوثي قريش : انطلقا ، فلا واللهِ لا أسلمهم إليكما ، ولا يُكَادون .

ـ وحاول الرّجلان مرّةً أخرىٰ أنْ يوقعا بالمهاجرين ، لكن الله كان لهما بالمرصاد ، وخرجا من عند النجاشي مقبوحين ، مذمومين ، مدحورين مردوداً عليهما ما جاءا به من هدايا ، وأقام المسلمون ـ كما قالت أمّنا أم سلمة رضي الله عنها ـ : وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جار[1] .

---

(١) هذه القصةُ من حديثٍ طويل رواه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢٩٠) ، و (١/ ٢٠٢ و ٢٩٢) ، من طريق ابن إسحاق بسندٍ صحيح عن زوج رسول الله ﷺ أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها .

وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٤ـ٢٧) : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق ، وقد صرح بالسَّماع ؛ وأخرجه ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٣٤٤) ؛ وأبو نعيم في الحلية (١/ ١١٥) .

ـ وهكذا أحسنَ النَّجاشي جوار المؤمنين ، وظلوا عنده حيناً منَ الدّهر ، حتىٰ قدموا علىٰ رسول الله ﷺ عقبَ غزاةِ خيبرَ في سنةِ سَبْعٍ من الهجرة .

ـ وكانَ من بركات هذا الجوار الميمون أن أسلم النَّجاشي[1] ، وصدّق بنبوة الحبيب المصطفىٰ رسول الله ﷺ ، ولما مات صلّىٰ عليه النبيُّ صلاة الغائب .

---

(١) جاء عن عطاء بن أبي رباح ـ رحمه الله ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « اتخذوا السُّودان فإنَّ ثلاثةً منهم من ساداتِ أهلِ الجنة : لقمان الحكيم ، والنّجاشي ، وبلال المؤذن » . قال الطبراني : أراد الحبش . انظر : (فتح البيان في مقاصد القرآن ٧/ ٢٨١) ، وكشف الخفاء (١/ ٣٦) ؛ وفي رواية : « خير السودان ثلاثة : لقمان ، وبلال ، ومهجع » (كشف الخفاء ١/ ٤٧٣) . وقد نظم بعض الفضلاء ذلك بقوله :

سادةُ السودان أربع ... هكذا قال المُشَفّع
النجاشي وبلال ... ثم لقمان ومهجع

(كشف الخفاء ١/ ٤٧٤) .

ـ روي في الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ نعىٰ النجاشي في اليوم الذي ماتَ فيهِ ، وخرج بهم إلىٰ المصلىٰ ، فصفَّ بهم ، وكبر أربع تكبيرات .

ـ وكان النجاشي يسمىٰ « أصحمة » ، فقد روىٰ البخاري عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ حين مات النجاشي : « ماتَ اليومَ رجلٌ صالحٌ ، فقوموا فصلُّوا علىٰ أخيكم أصحمة » . وروي هذا عن غير واحدٍ منَ الصحابة[1] .

ـ هذا وقد استدلَّ بما صحَّ من صلاةِ النَّبيِّ والمسلمين علىٰ أصحمةَ النّجاشي علىٰ جوازِ الصلاةِ علىٰ الغائبِ ، وإلىٰ هذا ذهبَ جمهورُ الفقهاءِ سَلفاً وخَلفاً ، وصارَ شرعاً متّبعاً إلىٰ يوم القيامةِ .

* * *

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٣/ ٧٧) وانظر كذلك صحيحي البخاري ومسلم كتاب الجنائز .

الفصلُ الثاني

النبيُّ ﷺ جارُ أبي أيوب الأنصاري

ـ لئن كان أبو أيّوب الأنصاري وزوجُه أمُّ أيوب من أسبق السُّبَّقِ من الأنصارِ إلىٰ الإيمانِ باللهِ ودعوةِ رسولهِ ، لقد كانا ممن حظيا بجوار رسول الله ﷺ عندما هاجرَ إلىٰ المدينةِ المنورةِ ، ونزل ضيفاً عليهما .

ـ وفي المدينةِ المنورةِ استقبلَ الأنصارُ رسولَ الله ﷺ وصاحبَه أبا بكر استقبالاً زاهراً مفعماً بالإيمان ، وبحبّه ﷺ ، فلم يسمعِ التاريخ ، بل لم يُسْمعِ التاريخُ أن استُقْبِل أحدٌ بمثلِ ما استُقبل به الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ في هجرتهِ إلىٰ المدينةِ المنورةِ ، فكان ﷺ كلّما مرّ بقبيلة من قبائل الأنصار ، تضرعوا إليه وهم آخذون بزمام ناقتهِ أنْ يبقىٰ بجوارهم حيثُ العددُ والعدّة والمنعة والثروة ، فكانَ الحبيب المصطفىٰ ﷺ

يدعو لهم ويقول : « خلّوا سبيلها فإنَّها مأمورة » . وكلما مرَّتْ بدارٍ من دُور الأنصارِ تنهضُ أشرافها ورؤساؤهم لاستقبال الحبيب الأعظم صلواتُ ربّي وسلامه عليه ، وسؤاله في ضراعةِ الحبِّ والفداء أنْ ينزل فيهم ، فيدعو لهم بخير ، حتى بلغت ناقتُه دار بني مالك بن النجار ، حيثُ المكانُ المطهّر الذي اختاره الله عَزَّ وجَلَّ ليكون مسجداً تشعُّ منه أنوارُ الهدايةِ علىٰ الدُّنيا علْماً وعَمَلاً وحيثُ المكانُ الأطهرُ الذي اختاره اللهُ عَزَّ وجَلَّ مستقرّاً لرسولهِ في حياتهِ ، ومثوىٰ لجسدهِ الشريفِ بعد انتقاله إلىٰ الرَّفيق الأعلىٰ .

ـ قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ : وقد كان في المدينة دور كثيرة ، تبلغُ تسعاً ، كل دار محلّة مستقلّة بمساكنها ونخيلها وزروعها وأهلها ، كل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلتهم ، وهي كالقرىٰ المتلاصقةِ ، فاختار الله لرسوله ﷺ دار مالك بن النّجار[1] .

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٢٠١) .

ـ ولما بركتْ ناقتهُ ﷺ في مكان مسجده ، نزل عنها وسأل : « أي بيوت أهلنا أقرب »؟!

فقال أبو أيّوب : أنا يا رسول الله ، هذه داري ، وهذا بابي .

ونقل رحْل الحبيب الأعظم ﷺ إلىٰ منزل أبي أيوب وأمّ أيّوب ، ثم قال له رسول الله ﷺ : « فانطلق فهيئ لنا مقيلاً » .

فذهب وهيأ المقيل ، ثم جاء فقال له ولأبي بكر : قد هيأتُ مقيلاً ، قوما على بركةِ اللهِ فقيلا .

ـ وروي أنَّ أبا أيوب أتاهُ فقال : يا رسول الله ، إنَّ منزلي أقربُ المنازل إليك ، فانقُل رحلك إليّ ، فقال رسول اللهِ ﷺ : « نعم » ، فذهب أبو أيوب برحل رسول الله ﷺ إلىٰ منزلهِ ، ثم جاءَ رجلٌ فقال : يا رسولَ اللهِ أينَ تحلّ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ الرجلَ مع رحله حيث كان » .

ـ إنَّ نزولَ الرَّسولِ الكريم ﷺ في دار أبي أيوب الأنصاري بأمر اللهِ تعالىٰ منقبة عظيمة لأبي أيوب خالدِ بن زيد النَّجاريّ

تُضاف إلىٰ مناقبِ الأنصار عامة ، وإلىٰ مفاخر بني النَّجار خاصة ؛ ولقد أصابَ السُّبكي ـ رحمه الله ـ عندما قال مخاطباً النبي ﷺ :

نزلتَ علىٰ قومٍ بأيمن طائرٍ لأنّـك ميمـونُ السَّنـا والنَّقيبـةِ
فيـا لبني النَّجـارِ مـن شـرفٍ بـهِ يجرّون أذيالَ المعالي الشّريفةِ

ـ نعم ، لقد بدأتْ نفحاتُ الجوارِ الطَّيِّب تنبعث من دور الأنصار ، حيث احتفوا بالجار الكريمِ ، الرؤوف الرحيم ، حبيبنا الأعظمِ محمدٍ ﷺ ، وأكرمْ به من جار! ويا حبذا محمدٌ من جار! وهناك راحتْ راحاتُ الأنصارِ نساءً ورجالاً تجودُ بما لديها من هدايا وطعام لهذا الجارِ الميمونِ الذي بارَكَ اللهُ به المدينة فغدتْ منوّرة به .

ـ فعن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال : أوّلُ هدية أهديتْ إلىٰ رسول اللهِ ﷺ حين نزل دارَ أبي أيوب أنا جئتُ بها ، قصعة فيها خبز مثرود بلبن وسمن ، فقلت : أرسلتْ بهذه القصعة أمي[1] ، فقال ﷺ : « بارَكَ الله فيك » ، ودعا

---

(١) اسم أمّ سيدنا زيد بن ثابت هو : النّوار بنت مالك بن صرمة =

أصحابه فأكلوا ؛ ثُمَّ جاءتْ قصعة سعد بن عبادة : ثريد وعراق لحم ، وما كان من ليلةٍ إلا وعلىٰ باب رسولِ الله ﷺ الثلاثة والأربعة يحملون الطعام يتناوبون : وما كانت تخطئه ـ ﷺ ـ جفنة سعد بن عبادة وجفنة أسعد بن زرارة كل ليلة ، إلا أن زيداً وأمَّه قد حازا قصب السَّبْق في هذا المضمار الكريم .

ـ وأقام الرَّسولُ ﷺ في منزل أبي أيوب ، وبعث فأحضرَ أهلَه من مكة ، وكان أبو أيوب وزوجه يحسنا جوار الحبيب المصطفىٰ ﷺ إلىٰ أن حدثتْ إحدىٰ اللطائف التي تفصح عن أدب أبي أيوب الأنصاري ، ترىٰ ما هذه اللطيفة في هذا الجوار؟!

ـ من لطائفِ الأدب التربوي ، وصور الحبّ الصريح للحبيب الأعظم محمد ﷺ ما روي عن أبي أيوب رضي الله

= الأنصارية النجارية ، وللمزيد من أخبارها الحِسَان ، اقرأ كتابنا « نساء من عصر النبوة » (١/ ٢٩١ـ٢٩٨) ففي سيرتها نفحاتٌ رائعة من حسنِ الجوارِ للحبيب الأعظم ﷺ .

عنه ، حيث قال يصور ما وقع له ولأهل بيته في غمرةِ الحبّ ، ولهفةِ الرغبةِ في الفوزِ بجوارِ رسول الله ﷺ ونزوله عنده في داره من سَهْوةٍ حدثتْ معه لم تكن تمرّ وقائعها بخاطره ، فقال : لما نزلَ عليَّ رسولُ اللهِ ﷺ في بيتي ، نزلَ في السُّفل ، وأنا وأم أيّوب في العلو ، فقلتُ له : بأبي وأمي أنتَ يا رسول الله ، إني أكره وأعظم أنْ أكونَ فوقك ، وتكون تحتي ، فاظهرْ أنت ، فكن في العلو ، وننزلُ نحنُ فنكون في السُّفل ، فقال ﷺ : « يا أبا أيوب إن أرفق بنا ، وبمن يغشانا أن أكون في سفل البيت » . فكان رسولُ الله ﷺ في سفلِ البيت ، وكنّا فوقه في المسكن ، فلما خلوتُ إلىٰ أم أيّوب قلتُ لها : رسول الله ﷺ أحقُّ بالعلو منّا ، تنزل عليه الملائكة ، وينزل عليه الوحي ، فما بتُّ الليلة لا أنا ، ولا أمّ أيوب .

- وفي بعض الرِّوايات : أنَّ أبا أيوب تنبّه ليلاً فقال : نمشي فوق رسول الله ﷺ ، فتحول فباتَ في جانب ، قال أبو أيوب : فلما أصبحت قلت : يا رسول الله ، ما بتُّ لا أنا ولا

أمّ أيوب ، قال رسول الله ﷺ : « لِمَ يا أبا أيوب »؟!

قال : كنتَ أحق بالعلو منّا ، تنزلُ عليك الملائكةُ ، وينزلُ عليكَ الوحيُ ، لا ؛ والذي بعثكَ بالحقّ لا أعلو سقيفة أنتَ تحتها أبداً ، فلم يزل أبو أيوب يتضرع إلىٰ رسول الله ﷺ حتّىٰ تحوَّل إلىٰ العلو ، ونزلَ أبو أيّوب وأهله في السُّفل .

ـ ويقول أبو أيوب في تصويرِ أدبِ الحبّ ، وتقديسِ النبوة : فلقد انكسر لنا حبٌّ لنا فيه ماءٌ ، فقمتُ أنا وأمّ أيوب لقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ، ننشّفُ بها الماء ، تخوفاً أنْ يقطرَ علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ منه شيءٌ فيؤذيَه .

ـ إنَّ هذه اللطائف الهامسة الآسرة تصوّرُ مدىٰ احترام جوارِ الحبيبِ الأعظم ﷺ ، ومدىٰ عِظَمِ الحبّ الذي يكنّه أبو أيوب والأنصار لرسول الله ﷺ إيماناً منهم بأنَّ حبّه لبُّ الإيمانِ وذروةُ التّوقيرِ ، وعنوانُ اليقين .

ـ ومنْ لطائف حسن جوار أبي أيوب واحترامه للجار المبارك سيدنا رسول الله ﷺ ، أنَّه كان يتحين آثاره ﷺ التماساً لبركاته ، فقد روىٰ الحاكم وغيره أنَّ أبا أيّوب ـ رضي الله عنه ـ

قال : كنّا نصنعُ لرسولِ اللهِ ﷺ العشاء ، ثم نبعثُ به إليه ، فإذا ردَّ علينا فضله ، تيممتُ أنا وأمُّ أيوب موضع يده ، نبتغي البركة بذلك ، حتىٰ بعثنا إليه بعشائه وقد جعلنا فيه بَصَلاً أو ثوماً ، فردّه ولم أرَ ليدهِ فيه أثراً فجئتهُ فَزِعاً ، فقلت : بأبي أنتَ وأمّي ، رددتَ عشاءك ولم أرَ فيه موضعَ يدك؟!

فقال : « إني وجدتُ فيه ريحَ هذهِ الشجرة ، وأنا رجلٌ أناجىٰ ، فأمّا أنتم فكلوه »[1] .

ـ لقد ضربَ أبو أيوب وزوجهُ والأنصار جميعهم مثلاً عليا بحسنِ الجوار ، وإكرامِ الجار ، ومواساة إخوانهم المهاجرين ، وإحسان جوارهم ، فحظوا بالإكرام من العزيز الغفار .

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٣/ ١٩٩) ؛ وللحديث أصل في الصحيحين ، إذ أخرجه البخاري في صفة الصلاة (٢/ ٢٨٢و٢٨٣) ؛ ومسلم في المساجد برقم (٥٦٤) ؛ وفي الأشربة برقم (٢٠٥٣) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه .

ـ أما دار أبي أيوب التي حظيتْ بالشّرف الرفيع ، بل بعنوان الشّرف الوافي ، فقد صارت بعد وفاة أبي أيوب إلىٰ أفلحَ مولاه ، ثُمَّ اشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار ، وأصلح ما وهىٰ من بنيانها ، ثم وهبها لأهل بيت فقراء . ولا تزال الدار المباركة ، دار أبي أيوب بالقرب من المسجد النبوي بالمدينة المنورة إلىٰ هذه الأيام ، فرضي الله عن أبي أيوب ، وجعله في جنّات ونعيم .

* * *